

## نهر النيل

كما ذكره العلامة ابن خلدون في مقدمته

بقلم رشوان أحمد صادق

جاء ذكر النيل في كثير من المؤلفات العربية التي وضعها جغرافيو العرب من أمثال الإدريسي وياقوت الحموي والاصطخري وابن سعيد الجيهاني وغيرهم كثير . على أن ابن خلدون وصف هذا النهر وصفاً بديعاً في مقدمته المشهورة

وقبل أن نتحدث عن مقال ابن خلدون عن نهر النيل يحسن بنا أن نذكر الحقائق الآتية :

أولاً : اطلع ابن خلدون على أبحاث من سبقه إلى هذا الموضوع وحاول أن يوفق بينها وبين ما سمعه من الأحاديث المختلفة عن نهر النيل

ثانياً : لم يذهب ابن خلدون إلى أعلى النيل ولكنه ربما زار بعض أجزاء النهر السفلى مثل الأراضي المصرية

ثالثاً : إن ابن خلدون قد وصف بعض أجزاء نهر النيل بدقة جعلت الكثير من العلماء يهتم برسالة هذا الرجل الفيلسوف

رابعاً : إن العهد الذي كتب فيه ابن خلدون كان عهد اجتهاد من حيث البحث عن منابع النيل ، إذ كانت مسألة النيل من الأمور الغامضة ، ولم تتح الفرص لفك لغزه أو الحصول على معلومات حقيقية عنه مبنية على أبحاث دقيقة إلا بعد أن وطد محمد علي الأمن في أعلى النيل ، وبذلك سهلت مهمة من قام بهذا العمل

والآن نذكر أقوال ابن خلدون عن نهر النيل ثم نعقب عليها

قال : « فأما النيل فببؤه من جبل عظيم وراء خط الاستواء بست عشرة درجة على سمت الجزء الرابع من الأقليم الأول ويسمى جبل القمر ولا يعلم في الأرض جبل أعلى منه . تخرج

منه عيون كثيرة فيصب بمضها في بحيرة هناك وببضها في أخرى ، ثم تخرج أنهار من البحيرتين فتصب كلها في بحيرة واحدة عند خط الاستواء على عشر مراحل من الجبل ، وتخرج من هذه البحيرة نهران يذهب أحدهما إلى ناحية الشمال على سمتة ويمر ببلاد النوبة ثم بلاد مصر ، فإذا جاوزها تشعب في شعب متقاربة يسمى كل واحد منها خليجاً وتصب كلها في البحر الرومي عند الاسكندرية ، ويسمى نيل مصر وعليه الصعيد من شرقه والواحات من غربيه . ويذهب الآخر منطفاً إلى المغرب ثم يمر على سمتة إلى أن يصب في البحر المحيط وهو نهر السودان وأسمهم كلهم على ضفتيه »

من ذلك يتبين إلى أي حد كانت معلومات ابن خلدون عن هذا النهر . أما عن أعلى النهر فمعلوماته قاصرة على السماع وعلى ما وصل إلى علمه من كتب من سبقه إلى ذلك الموضوع . وعلى الأخص كتاب بطليموس الذي ذكر ذلك بوضوح ونقل عنه الإدريسي وغيره . ولكن في كلام ابن خلدون مسألة مهمة ألا وهي ذلك النهر الذي يتجه غرباً ويصب في البحر المحيط ما هو ذلك النهر الغربي ؟

أكان ابن خلدون متأثراً بالآراء القديمة من أمثال رأي هيروdot الذي يقول بأن النيل يتجه غرباً إلى المحيط ؟ أم كانت عنده معلومات عن نهر الكونغو وظن أنه يتصل بالنيل كما كانت هذه الفكرة سائدة إلى زمن ليس بعيد ؟ أم كان يعرف نهر النيجر وظن أنه فرع من النيل لقرب منابع بعض نهرايه من منابع بعض نهيرات حوض تشاد القريبة من منابع بعض نهيرات النيل ؟

ولكي نوضح هذه المسألة نقول : إن ابن خلدون ربما كان يقصد أحد هذه الآراء الثلاثة الآتية :

١ - يقول ابن خلدون إن هناك نهيرات تنبع من جبل القمر ثم تصب في بحيرتين ، ثم تخرج أنهار من البحيرتين فتصب كلها في بحيرة واحدة عند خط الاستواء ، وتخرج من هذه البحيرة نهران يتجه أحدهما نحو الشمال والآخر نحو المغرب ويصب في المحيط

لهل كان يقصد بحيرة فكتوريا وبحيرة ادورد ، وأن البحيرة

الثالثة هي بحيرة البرت ، والنهر التيجه شمالاً هو بحر الجبل والتيجه غرباً هو الكنفو

والقاعدة في هذا الفرض أن المنطقة بين النيل والكنفو غير محدودة تماماً ، كذلك ليست شديدة الارتفاع ، وفي زمن الأمطار الشديدة قد تكون هذه المنطقة عبارة عن شبكة من المجارى المائية التي يصبح من المتعذر تتبعها خصوصاً وأن تلك الجهات كانت غير معروفة تماماً ، وأن المعلومات عنها كانت منقولة عن التجار العرب والزوج

فإن كان ابن خلدون يقصد ذلك - وهو الأرجح - فذلك دليل على ذكاء ذلك الرجل الفيلسوف والعالم المحقق ولقد ظلت فكرة اتصال النيل بالكنفو زمناً طويلاً في عالم الوجود قبل أن يكشف تماماً عن نهر الكنفو

٢ - أما عن الرأي الثاني فنقول إن ابن خلدون ربما قصد بالبحيرة الثالثة منخفض بحر الفزال ( بحيرة نو واقليم السودان ومنخفض بحر الفزال ) . فالواقع أننا عندما نتتبع هذه المنطقة على الخريطة قد لا نتبين تماماً مقدار عظمها ، ولكن إذا ما اطلعنا على مذكرات بعض التجار الذين قطعوا هذه المسافات من أمثال الزبير باشا نتبين تماماً أن هذه المنطقة تظهر لأول وهلة كأنها مستنقع عظيم السعة . فلقد ذكر الزبير باشا في مذكراته أنه ضل الطريق وسط هذا المستنقع اثني عشر يوماً حتى كاد يشرف على الهلاك

فربما كان ابن خلدون يقصد بالبحيرة الثالثة هذا المستنقع العظيم . وإن النهر الذي يتجه غرباً هو بحر العرب وروافده . وربما وصلته أخبار عن النيجر وحوض تشاد فظن أن بحر العرب يتصل ببحيرة تشاد وهذه الأخيرة تتصل بالنيجر إلى المحيط ( البحر )

ولقد كان يظن أن النيل يتصل بنهيرات بحيرة تشاد وهذه تتصل بأعلى النيجر ، وبقيت تلك الفكرة سائدة إلى أن ذهبت البعثة الفرنسية وطافت حول بحيرة تشاد وأثبتت أن حوض تشاد منفصل عن النيل وعن النيجر تماماً

وربما كانت تلك الفكرة بسيطة عن ذهن ابن خلدون ، ومع ذلك لا مانع من ذكرها خصوصاً وأن فكرة اتجاه

النيل غرباً كانت سائدة في قديم الأزمنة  
٣ - أما عن الرأي الثالث فربما قصد ابن خلدون بالبحيرة الأولى ، بحيرة رودلف ، وظن أن نهر أومو الذي يتصل بها متصل بنهر أو كوبو أحد أفرع السوبات ، وأن البحيرة الثانية هي فكتوريا ، والبحيرة الثالثة هي نو ( ومنخفض بحر الفزال واقليم السودان ) ، وأن النهر الغربي هو بحر العرب ويتصل بحوض تشاد ، ثم حوض تشاد يتصل بحوض النيجر ، ثم ينصرف الأخير إلى المحيط كما سبق أن بينت ذلك في الرأي السابق

ومما جعلنا نحتمل وجود هذا الرأي على الرغم من ضعفه هو قرب بحيرة رودلف من ساحل أفريقية الشرق ، إذ أنه معروف أن التجارة كانت تنقل من أعالي النيل إلى ساحل أفريقية الشرق حيث يمكن تبادلها مع سكان الساحل الآسيوي المقابل لساحل أفريقية الشرق ، وكانت الأخبار تنقل مع التجار العرب أو الزوج ، ومن ضمن هذه الأخبار المعلومات المختلفة عن منابع النيل واقليم البحيرات

ولما كانت بحيرة رودلف قريبة من ساحل أفريقية الشرق فلا يبعد على الظن أن تكون ذكرت كتبنا للنيل ولعل تلك الفروض كانت راجعة إلى عدم معرفة هذه الجهات بالدقة أيام أن كتب ابن خلدون رسالته ، وإن كل ما ذكر عنها كان عن طريق النقل والسماع الذي لا يخلو من الباطل والخطأ ، زد على ذلك قلة المدات العلمية وآلات القياس المختلفة بعكس ما نحن عليه الآن من تقدم

والآن ندخل في التفاصيل التي ذكرها الفيلسوف ابن خلدون عن بقية نهر النيل

قال يصف البحيرة الثالثة : « في أسفها جبل معترض يشق البحيرة من ناحية الشمال ويقدم ماءها إلى قسمين فيمر الغربي منه إلى بلاد السودان مغرباً حتى يصب في البحر المحيط » وفي ذلك إشارة إلى خط تقسيم المياه بين النيل والكنفو ، ونرجح ذلك إذا ما علمنا أن شاطئ بحيرة البرت من الجهة الغربية يحد به الجبال ، ثم خلف هذه المرتفعات أي في الجهة الغربية منها توجد المجارى المائية التي تمد نهيرات الكنفو ، فلا يبعد على الظن أن يكون ابن خلدون قد اعتبر منابع الكنفو

وراء هذه الجبال الناحية لشاطىء بحيرة البرت الغربي جزءاً متما لهذه البحيرة خصوصاً وهذه المنطقة محتوى على عدد عظيم من النهيرات ، فهى عبارة عن شبكة مائية يصعب تحديدها خصوصاً فى أوقات الأمطار الشديدة والفيضانات حيث تظهر كمتسع عظيم من المياه

وربما قصد ابن خلدون بهذه المرتفعات مرتفعات دارفور التى تفصل مياه وادى الكوه ووادى جندى التصلين ببحر العرب عن وادى بحر السلامات المتصل بنهر شادى المتصل ببحيرة تشاد

وربما قصد بهذه المرتفعات مرتفعات بندا التى تفصل بين مياه بحر النزال من جهة ونهر شادى المتصل ببحيرة تشاد من جهة أخرى . إذ أن نهرى الجبل والنزال يكونان حوضاً منخفضاً فى الوسط وحافته مرتفعة ، وما ارتفع الجهات التى تفصل حوض النزال عن حوض تشاد إلا لهبوط الانخفاضات المجاورة التى فيها بحر النزال وحوض تشاد

أما عن بقية نهر النيل فقد قال ابن خلدون : « ويخرج الشرق منه ذاهباً إلى الشمال على بلاد الحبشة والنوبة وفيها بينهما . وينقسم فى أعلى أرض مصر فيصب ثلاثة من جداوله فى البحر الرومى عند الأسكندرية ورشيد ودمياط ، ويصب واحد فى بحيرة ملححة قبل أن يتصل بالبحر فى وسط هذا الأقليم »

وفى ذلك إشارة إلى فروع النيل وتغيرها فى عهد العرب وما بعده عما كانت عليه فى عهد البطالسة ، فقد زالت المصببات الشرقية كلها تقريباً

ويقول أيضاً « وعلى هذا النيل بلاد النوبة والحبشة وبعض بلاد الواحات إلى أسوان ، وحاضرة بلاد النوبة مدينة دنقلة وهى فى غرب هذا النيل ، وبمدها علوه وبلاق ، وبمدها جبل الجنادل على ست مراحل من بلاق فى الشمال ، وهو جبل عال من جهة مصر ومنخفض من جهة النوبة فينفذ فيه النيل ويصب فى سهوى بميد صباً سهولاً فلا يمكن أن تسلكه الراكب بل يحول الوسطى من مراكب السودان فيحمل على الظهر إلى بلد أسوان قاعدة الصيد ، وكذا وستن مراكب الصيد إلى فوق الجنادل ، وبين الجنادل وأسوان اثنتا عشرة مرحلة ، والواحات فى غربها عدوة النيل وهى

الآن خراب وبها آثار العارة القديمة »

وفى ذلك إشارة صريحة إلى الشلالات التى تعترض النيل قبيل أسوان والتى تكون بمثابة عقبة ، إذ نجد الانحدار شديداً . ويظهر أن المنطقة التى يصفها ابن خلدون هى المنطقة المسماة الآن شلال حلفا ، وتبدأ بعد سراسن ، ومن بعدها بقليل نجد شلالات جيبي وابكة وطولها معاً أكثر من ١٦ ل . ٢ ، وينحدر عندها النيل انحداراً شديداً . وهذه الجنادل هى التى يطلق عليها عادة شلال حلفا وهى كثيرها من الشلالات السابق ذكرها يرجع تكوينها إلى اعتراض الصخور البلورية الشديدة الصلابة فى مجرى النهر وتتكون منها الجزر

وأما عن لفظ (واحات) فربما قصد بذلك بقايا المدن الأثرية التى قامت على أنقاضها المدن الحديثة ، أو ربما أطلق هذا اللفظ على البلاد الموجودة فى هذه المنطقة الحديثة والتى تعتمد على الآبار لبعدها عن النيل

أما عن قوله إن الحبشة على النيل فربما قصد بذلك الفرع الذى يأتى من بلاد الحبشة وهو الأرجح ، إذ يقول : « بلاد الحبشة على واد يأتى من وراء خط الاستواء ذاهباً إلى أرض النوبة فيصب هناك فى النيل الهابط إلى مصر » . ويقول « وقد وهم فيه كثير من الناس وزعموا أنه من نيل القمر ، وبطليموس ذكره فى كتاب الجغرافيا وذكر أنه ليس من هذا النيل »

وهذه إشارة إلى أنه لم يكن يعرف هضبة الحبشة ولا منابع النيل الأزرق . على أنه يتفق مع بطليموس فى أنه ينبع من جهات غير منابع النيل فى جبل القمر . وهذه المسألة مدهشة ، إذ أن النيل الأزرق كان معروفاً منذ أيام اراتستين ، وأن هضبة الحبشة كانت مجاورة لبلاد اليمن وذات حضارة ، فكيف لم يعلم شيئاً عن منابع النيل الأزرق بينما رسم كل من بطليموس والادريسي بحيرة تسانا ؟

ثم ذكر المحيط الهندى والبحر الأحمر والخليج الفارسي ، وقال عنهما : البحران الهابطان ، ثم ذكر بوظاز باب المنسذب والمنطقة المرروفة الآن باسم الارتريا ، ثم تكلم عن التجارة بين اليمن والسويس ، وذكر سواكن ، وتكلم عن الواحات الداخلة وعين مكناها ، وذكر النيل فى المنطقة بين المقطم (وجبل الواحات)